كتاب

نبذة العصر

في أخبار ملوك بني نصر

تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيّين إلى المغرب

ضبطه وعلّق عليه

الأستاذ الفريد البستاني

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

كتاب

نبذة العصر

في أخبار ملوك بني نصر

تسليم غرناطة وتزوح الأندلسيين إلى المغرب

كتاب

نُبذة العصر

في أخبار ملوك بني نصر

تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيّين إلى المغرب

ضبطه وعلّق عليه

الأستاذ / الفريد البستاني

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٩٧٧٤
I. S. B. N الترقيم الدولي	977 - 341 -077 -3

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس : ٥٩٢٦٢٧٧

الى

حمراء غرناطـــة

يا انشودة الخلود وقيثارة الالهام **حمراء غرناطة**

وقف المنشدونَ فوق ربوعـــكِ وصعّدوا اناشيدهم الالهيّة صـــلاة الى رب الكائنات، فلا تزال ترنّ في نياط قلوب الملهمين.

جلس المؤرّخونَ تحت حنايا ساحاتـــكِ وبايديهم صحائف الأزمنة الغابرة يستعرضون بها حوادث الايام، وارادوا ان يؤرخوا مجدك في سجل التاريـــخ الخالد فهابهم جـــلال المكان فما سطّروا الاّ خيوطاً مترجرجـــة ورسوماً مرتعشة مـــن الافتراضات، وخرجوا حاسري الرأس امام عظمة العبقرية.

برز الفلاسفة وفي افواههم مفاتيح الحكمة واشرفوا من قاعة السفراء على اسوار المدينة وابراجها المنيعة فاستعظموا العلّة ومجّدوا المعلول، فاطرقوا مفكريـــن واذا بحكيمهم يقول: «لتعرف الخليقة حقارتها امام عظمة الكون ومفاعيل الزمن. فياعلّة العلل ارحمنا.»

ذهب الشعراء الى هياكلكِ يلتمسون الالهام من ربـــة الشعر وهتموا بوصف جمالكِ فبهرهم قوة الوحي والخيال واذا بأميرهم يسبح ويجوّد ويقول:

«قدساً في البلاد شرقاً وغرباً
حجة القوم من فقيه وقسِّ
مرمر تسبح النواظر فيه
ويطول المدى عليها فترسي
وكان الآيات في جانبيه
يتنزّلن من معارج قدسِ»

ثم جاء المهندسون مستهزئين بالشعر والشعراء وبالوحي والالهام وبايديهم الخيوط والمقاييس وباشروا بقياسات المربعات، فاذا بمربعاتهم مثلثات ومثلثاتهم دائرات وزواياهم ساحات، فصعقوا وتمتموا قائلين: هذا من السحر بمكان فآمنّا بالسحر الحلال.

وقف الرعاة بقطعانهم فوق اطلالكِ عند المغيب فانعكست اشعة الشمس على لوحاتكِ الذهبية فتجلى بهاؤك وجلالكِ فعلموا ان المكان مقدّس فخلعوا النعال من ارجلهم وخرّوا ساجدين يتلون آيات التمجيد للعلي الرحمان، واذا بالنسيم العليل يردّد تسبيح الرعاة على انغام حفيف اوراق الشجر وصوت قيثارة الطبيعة الساحرة.

ايتها الحمراء الخالدة لقد شاهدتِ جميع تلك القوافل البشريَّة تمر امامكِ وما عقبها من حوادث واحداث وانتِ ثابتة تستهزئين بالاجيال.

انت كهيكل منصوب بين الارض والسماء يستوحي منكِ الشعراء ويضرع اليكِ الفنّانون ويستمد منكِ الأُدباء ويتغذى من مواردكِ المؤرخون.

سلامٌ منا اليكِ وفي القلب شوق وحنين ياحمراء غرناطة، ياعروس الاندلس التي كُتب مهرك بدماء الابطال وكنت عظة لقوم يعقلون.

يامعقِل العرب الكرام الاخير وحصنهم المنيع، يامفخرة النصريين على مدى الاجيال، شادتكِ سواعد لها في جبين تاريخ الأمم اعظم المفاخر.

فاليكِ يافتنة المغرب وحجة المشرق نهدي هذه المرحلة من تاريخ مراحل آخر ايام مجدك.

تطوان في ٢٤ مايو سنة ١٩٤٠

الفريد البستاني

الى
تطـوان

الى بلد الأمن والعيش الخضيل.
الى معقِل العروبة وحصنها المنيع.
الى ذاك البلد الطيب الذي ينسي الغريب غربته والشريـد محنته ونكبته ويؤاسي الجميع ببلسم لطف بنيه.

قد كنتِ ياتطوان ملجأ الاندلسيين بعد محنتهم، وانت الآن ملجأ كل حرٍ أبيٍ فاليك يامستودع الوطنية والخلق الجميل الذي يعتزُّ بكِ كل عربي تحت كل سماء وفوق كل أديم.

الى

الدماء التي استحالت وردا ً

الى تلك الدماء الذكيّة التي سُفكت في ميدان الشرف في سبيل الدفاع عن مبادي. الانسانيّة، فروت صحراء العظمة فنبتت مجداً ثم استحالت الى وردٍ عطريّ.

الفريد البستاني

تـــوطـئـــة

بسم الله الحي السرمدي

جولات قلم نزيهة

(١)

بينما كان العراق يتفرس وسوريا تتشرك والاندلس تتفرنج ومصر تتطور بتأثيرهـــم وتتأثر بتطورهـــم بين صعود وهبوط مرتبطة بدرجات سُلَّم المقاييس الأدبيَّة المرهونـــة بحرارة مزاج اعصاب الفاتحين كان في المغرب قبس العربيّة يشع وعلى جوانبه نفحات علم وأدب.

انهيار المملكة العربيَّة في الاندلس وسقوط آخر حصون غرناطة ولّد في جوّ المغرب مادة غزيرة لاقـلام الكتاب والأُدباء، فكانت الارض المغربيّة الكريمة الملجأ الوحيد لنازحي الاندلس من كتبة وشعراء.

رثاء تلك الفردوس المفقود وذكريات معالم الانـــدلس وبسط عيشها وجمال ارضها وتدفق جداولها في حدائقها الغنّاء وذكر مجالس زُمَر السمر واندية عُصَب الأدب والتغني بامجاد العرب وما كانوا عليه من رفعة مجد وسؤدد، كل ذلك وسّع ميدان الوحي ومجال الخيال لنفثات الشعراء.

بكى الرندي الاندلس فابكى معه المغرب فردّد صداه المشرق وكان في ذلك العهد في سباته العميق.

ان مؤرخي الأدب العربي لم ينصفوا الأدب المغربي ولا أدباء الغرب العربي فقد ظلموه بما كتبوه ودونوه فجاءت احكامهم عليه جائرة، ومن ادّعى قلة المصادر فالمكتبة المغربيّة حجة عليه (١).

ان بعض الأدباء والبحّاثة من شرقيين ومستشرقين قد مزجوا الأدب المغربي بالأدب الاندلسي ولم ينتبهوا الى مميزات الأدبين ولا الى فوارق البيئتين، فان الموشحات الاندلسيّة التي تمثلوا بها والازجال العاميّة التي دونوها لا تمثل اية ناحية من نواحي الأدب المغربي ولا اية صفة من صفات لغته المتينة التي كانت عليه في ذاك العهد، فللأدب المغربي طابعه الخاص واتجاهه الموسوم ومميزاته ظاهرة في آثار أعلامه.

قد حفظ المغرب عزة شأن اللغة وحماها من غارات الزمن وهجمات الاعاجم طيلة عدة قرون وذلك الى اوائل عصر الانبعاث الشرقي فبوادر النهضة الحديثة، فسلم حينئذٍ المغرب الى المشرق ازمّة قيادة دولة الأدب العربي ثم نام في سباته العميق، وما استيقظ الاّ على اصوات المدافع ودوي القنابل وعزيف الطيارات في الربع الاوّل من القرن العشرين، فنهض بروح قوية وأدب جديد يبشران بنهضة مغربيّة متينة الدعائم، وستلتقي النهضتان المغربيّة والشرقيّة في مرج العروبة الخصب وذلك قريباً ان شاء الله.

وهكذا قُيّضَ لتلك اللغة الجميلة ان تحيى دائماً وان تجد لها في كل عصر وفي كل مصر حماة يغيرون عليها ويفدونها بالمهج والأرواح.

---

(١) قد كتبنا فصلاً مستوفياً في هذا الموضوع في كتابنا شخصيّات أدباء العرب الجزء الثالث: شخصيّات أُدباء المغرب والاندلس: الذي يهتم بتهيئته للنشر معهد الجنرال فرنكو.

(٢)

حكايـة المخطوطـة

كان من حكمة الجنرال فرنكو وثاقب بصيرته في اثناء حرب تحرير اسبانيا ان يقرن الى انتصاراته العسكرية انتصارات أدبيّة تكون نواة نهضة عربية اسبانية جديدة تمحو ما اقترفته الحكومة السابقة على الثقافة والمدنيّة من شر وظلم وتكون ايضاً في الوقـت نفسه فاتحة عهـد جديـد لحسن التفاهـم ولتقويـة الصلات الثقافيّة والأدبيّة بين الأمتين المتجاورتين التي تربطهما منذ القدم روابط ثقافـة عالية وتاريخ مشترك ومدنيّة سامية تغذت منها اوربا وعاشت عليها طيلة سبعة قرون.

ففي صيف عام ١٩٣٧ أمرني سعادة الكولونيل بيكبدر المفوّض السامي الاسباني بالمغرب المعروف بحبه الشديد للعرب وتفانيه في سبيل نشر الثقافة العربيّة في هذه المنطقة السعيدة، وذلك نزولاً عند رغبة واوامر صاحب السمو الملكي مولاي الحسن بن المهدي بـن اسماعيل نصير العلم والأدب ورافـع لوائهما ومجدد مجد العرب في هذا القطر المحبوب: ان اقوم برحلات علميّة تنقيبيّة وان اجول بين القبائل والمداشر والدساكر المغربيّة من حواضر وبوادي ابحث في الخزائن والمكاتب عن آثار العرب الكرام وكنوزهـم الأدبيّة المكنونـة وما تركوه مـن منثورات افكارهم ومولدات قرائحهم.

ففي المغرب كنوز ودُرَر اناخت عليها يد الزمن وسطت عليها عاديات الدهر، وللمغاربة ولعٌ كبير في اقتناء المخطوطات النفيسة يحافظون عليها كاثمن الذخائر وبها يتنافسون.

فتلقيت أوامر الكولونيل بيكبدر بكثير من الاغتباط والسرور، فهذه هي

ضالتي المنشودة وجانب كبير من رسالتي الأدبيّة، فالله يسدد الخطى ويرشدنا الى ما فيه خدمة الثقافة العربيّة وحسن رضاه.

فتوكلتُ على الله وباشرت في الحال برحلات متعددة الى قبائل غمارة التي كانت مشهورة بكنوزها الأدبية، فقمت من الجبهة الى بني ارزين فبني خالد فبني زيات فبني منصور وبني سلمان فقبائل الاخماس العليا والسفلى الى غير ذلك من القبائل الجبليّة الشرقيّة، فدوّنتُ كثيراً من المعلومات وجمعتُ عدداً من الوثائق والمخطوطات، تهتم بنشرها اليوم مؤسّسة الجنرال فرنكو للأبحاث العربيّة الاسبانيّة بعناية مديرها الحازم الأديب الاسباني المعروف: الضون طوماس غرسيا فيغيراس، ثم قمتُ على الاثر برحلات الى الناحية الغربيّة وقبائلها الساحليّة والجبليّة.

فادّى بنا الترحال في يوم صيف اشتدّ هجيره الى مدشر صخرة من بني كورفط وكنت علمتُ من بعض اصدقائي التطوانيين ان هناك بعض الكنوز الخطيّة. فسألنا عن القائد فأُرشدنا اليه، فوجدناه جالساً فوق دكة حجريّة امام باب الجامع، تحت ظل الشجر وحوله جماعة من عيون القبيلة ومقدميها يتحادثون، فلما اقتربنا منه ترجلنا فوقف وهشّ وبشّ فسلمنا فاجاب باحسن واشار الى غلام كان بالقرب منه فأخذ منا الخيل وذهب بنا الى داره حيث اعدّ القرى.

وكان برفقتي شاب اسباني من المراقبة الغربيّة وآخر مغربي شفشاوني المولد تطواني المنشأ، فاكلنا على بركة الله، وبعد ما رفع (طيفور) الطعام وتطيّبنا بماء الزهر الخالص وتبخّرنا بعود الند قال لنا القائد: «ان كان لكم حاجة في القبيلة فهي مقضية بحول الله» فبادرتُ وابلغته أمر مولانا الخليفة حفظه الله، فاحنى رأسه تعظيماً لاسمه الميمون ودعى له بالتأييد وطول العمر ونادى الفقيه، فانبرى من بين الجماعة رجل في اواخر العقد الرابع من عمره طويل القامة واسع الصدر عريض المنكبين وعلى سيماء وجهه دلائل الذكاء والوقار، فبادره القائد باللهجة

المغربية سائلاً: «كايـــن شي كتب خط اليد في الدشار»: «كاين شي حاجه» اجابه الفقيه وذهب بنا مـــع المقدم الى دار قريبة مـــن الجامع، دار حقيرة الاثاث ولكنها نظيفة، فالفلاح المغربي نظيف في العموم، وبعد الاستأذان دخلنا الـــدار فاستقبلنا ربُها بالترحاب واحضر حالاً (الاتاي) ثم هبط والفقيه خزيناً ارضياً ورجعا بعد هنيهة ووضعا بين ايدينا بعض مخطوطات ووريقات متبعثرة كانت موضوعـــة في خزين المؤونة فغزا اكثرها العثة والارضة، فأخـــذتُ تلك الكنوز بشغف وشوق وامعنت في دراستها، فلفت نظري مخطوطتان في حالة جيدة، الاولى: حَلبَة الكُمَيت للأديب الكاتب شمس الدين ابي عبد الله النواجي المتوفى عام ٨٥٩ والثانية: شرح مقصورة ابن حازم القرطاجنّي لابي عبد الله محمد الشريف الحسني السبتي.

فبينما كنت اقلّب صفحات المخطوطة الاولى عثرت على وريقات متناثرة وضعت عفواً بين صفحاتها وهي تختلف عنها بالموضوع والخط والحجم، فأخذت انظم حلقات تلك العقد المنثور وابحث عن المفقود منها في الخزين التي كانت مدفونة فيه، فتجمع لديَّ مجموعة من تلك الوريقات فطلبتها مـــن صاحبها مع المخطوطتين المذكورتين وساومته عليها فتفقنا، ثم ودعنا الجماعة وشكرنا لهم حسن صنيعهم وضيافتهم.

ولما رجعت الى العاصمة بعد تلك الرحلات الشاقة أخذت بدراسة تلك الوريقات فانجلى امرها وظهر انها مبتورة ومتناثرة من مؤلف مخطوط كتب في تاريخ الملوك النصريين وسقوط آخر حصون العرب في الاندلس وتسليم غرناطـــة الى غير ذلك مـــن نقاط التاريخ الهامة، وكنت قد قرأت ما كان قد كتبه في هـــذا الموضوع سعادة الشريف النبيل حجة العروبـــة والاسلام الأمير شكيب ارسلان في ذيـــل روايته (آخر بني سرّاج) نقلاً عـــن بعض فصول نشرها المستشرق الالماني المعروف مارك موللر في مونيخ عام ١٨٦٣ تحت عنوان: اشياء عن غرناطة مع ترجمة المانية، فأخذتُ ابحث علني اظفر بنسخة كاملة لهذه النصوص يكون نشرها مـــع غيرها

من المخطوطات القيمة خدمة كبيرة لابناء لغتي ومنهلاً عذباً لورّاد ينبوع تاريخ الاندلس ونبراساً ينير بعض القضايا المظلمة من هذه الناحية المعقّدة (١).

فقد عثرتُ في خزانة احد النبلاء التطوانيين على نسخة كاملة فيها كثير من الفصول التي بترت من مخطوطة المستشرق الالماني مارك موللر، فأخذت تلك النسخة وضبطتها ونقحتها وصححت بعض التعابير والالفاظ التي شوهتها يد النساخ ومسختها، ووضعت لها العناوين والتواريخ والحقتها بفهارس جغرافية لاسماء المدن والقرى والامكان وما يقابلها باللغة الاسبانية القشتالية.

والآن يضعها معهد الجنرال فرنكو بين ايدي مؤرخي العرب العصريين ويقدمها الى كافة محبي البحث والتنقيب من عشّاق تاريخ المغرب والاندلس.

وبهذه المناسبة نرفع عاطفة الشكر الجزيل الى حضرة الكاتب الاسباني القدير والمستعرب الجليل المعروف الدون كرلوس كيروس مدير معهد الدروس المغربية بتطوان الذي تطوع لترجمة المخطوطة فخدم التاريخ المشترك بعمله الجليل هذا وقدم الى مستعربي الاسبان والى المشتغلين بهذه الناحية التاريخية نصاً اسبانياً كاملاً لهذا الاثر النفيس. كما واننا نشكر صاحبي الفضيلة العلاّمتين الجليلين والقانونيين الكبيرين: الفقيه الفاضل محمد المرير رئيس المحكمة العليا للاستئناف الشرعي بما افادنا من معلومات في ضبط بعض اسماء الاماكن والمدن المغربية، والفقيه الجليل رئيس المجلس الاعلى للتعليم الاسلامي ومؤرّخ تطوان الاكبر الحاج احمد الرهوني فقد ارشدنا الى بعض نقاط تاريخية، فشكرنا للجميع يُسدى.

---

(١) ثم بعد ذلك قد توسّعت الفكرة وأُنشئت مؤسّسة الجنرال فرنكو للأبحاث العربيّة الاسبانيّة التي نجني ثمارها اليوم

(٣)

قيمة المخطوطة التاريخية

قد كتب هذا السفر التاريخي النفيس رجل حربي حضر المواقع وخاض غمراتها وراقب الحوادث والانقلابات وما عقبها من احداث ومفاجآت وشاهد انهيار تلك الحصون والابراج وكان قد اشترك في الدفاع عنها.

فذلك الجندي الذي عرك الايام فعركته والذي أخذ من عظات الدهر عبراً تتبع تلك الحوادث فجاء يدوّن بريشة نزيهة ما شاهده عياناً. فكان لظهور وثائق هذا المحارب القديم الذي اخفى اسمه فيما كتبه قيمة كبيرة في عالم التاريخ، وقد كانت ولا تزال موضوع اهتمام اعلام الاستشراق والاستعراب والمؤرخين.

فكان في طليعة المشتغلين بها المستشرق الالماني المشهور مارك موللر فقد نشر في مونيخ عام ١٨٦٣ كتاباً تحت عنوان: اشياء عن غرناطة: (١) جمع بين دفتيه كثيراً من الحوادث التاريخية التي تتعلق باواخر عهد العرب في غرناطة واضاف اليها اكثر فصول هذه المخطوطة وجعل العنوان كما اخذه (كتاب اخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر) غير ان طبعة موللر لم تكن موفقة، ففيها كثير من التحريف والتصحيف عدا عن الاغلاط وعدم التنسيق، كما ان المستشرق الفاضل قد اهمل اهم فصول المخطوطة وهو نزوح الاندلسيين الى المغرب، ولعل ذلك بتر في اصل المخطوطة التي اعتمد عليها.

وكان ايضا المؤرخ الاسباني المعروف الضون ميكيل غريدو اتينسا قد

---

(1) Die Letzten Zeiten von Granada:
Herausgegeben von Marc. Jos. Müller. München 1863.

استشهد ببعض فصول هـذا المؤلف فيما كتبه عـن ملوك الكاثوليك في مجموعته التاريخية (١).

وقد كُتبت هـذه النسخة التي اعتمدنا عليها الى الحاج عبد الكريم راغون التطواني (٢) كما جاء في آخر المخطوطـة واثبتناه في المتن مع اسم الناسخ، اما المؤلف فقد اخفى اسمه ولا يزال مجهولاً.

---

(1) Colección de documentos relativos a Granada, publicados por Miguel Garrido Atienza. Granada 1910.

(٢) هو الحاج عبد الكريم راغون التطواني الاندلسي الصامتي من الأُسر الاندلسية الكريمة التي نزحت الى تطوان.

وقد جاء في ترجمة مولاي محمد بـن عبد الله في: كتاب اتحاف اعلام الناس: للشريف الاصيل ناقب العائلة العلوية الشريفة الكريمة العلاّمة الجليل والمؤرّخ الثقة مولاي عبد الرحمان ابن زيدان ما نصه: وفي سنة واحد وثمانين ومائة والف قدم عليه من القسطنطينية عبد الكريـم راغون التطواني وفي معيته استرسالية من المعلمين الاختصاصيين العارفين بانشاء الاساطيل وصب المدافـع وعمل القنابل والمجيدين في الرمايـة وفنون الحرب وكانت اول بعثة وردت مـن القسطنطينية بعد السعديين ولما وصلوا للحضرة فاوضهم في انشاء دار صناعة الاساطيل فرسموا خريطتها وبينوا شكلها وأُسلوبها وما يلزمها من النفقة الباهظة وطول المدة، فاعرض عنها واستخدمهم في شؤون اخرى فوجـه بعضهم للرباط لبناء المراكب الكبرى وآخرين لتطوان لصب القنابل الضخمة وآخرين لتعليم رماية المدافع بالمدن المهمة. فافادوا ما شاء الله ان يفيدوا وكانوا ثلاثين من صناديد الترك اقاموا بالمغرب الى ان توفي المترجم فسج الله له في عدنه.

لغة المخطوطـــة وأسلوب المؤلف

قد نهج المؤلف باسلوبه نهجاً يختلف عن أسلوب اكثر المؤرخين في عصره، فقد تجنب التطويـــل الممل والاكثار المبتـــذل والمبالغات الوهمية وسلك طريـــق الاختصار والاقتصار كما افادنا في مقدمته: «وعولتُ فـــي ذلك على الاختصار والاقتصار وتركتُ التطويل والاكثار لان باعي في التأليف قصير وبضاعتي في الفصاحة مزجاة». اما مـــن حيث اللغة فالاضطراب ظاهر في جميع النواحي، وان كان المؤلف قد خالف بعض المؤرخين مـــن ابناء عصره في الأسلوب فقد جاراهم في الاظهار والتعبير.

والله ولي التوفيق ولوحده العصمة وهو حسبنا

ونعم الوكيل

تطوان في ٢ يوليو ١٩٤٠

الفريد البستاني